لبنان (٤): معنى البلد ولعبة المرايا المكسرة

الحياة - ١٩/١/٨٩

غسان سلامة *

■ بالأمس غادرنا تقي الدين الصلح، الذي حمل اسم رياض وكاظم والكثير من افكارهما الميثاقية. بالأمس ايضاً اجتمع بعض اللبنانيين، بينهم الرئيس السابق شارل حلو، للتهيئة لاصدار أعمال ميشال شيحا الكاملة مرة اخرى، وكأنهم شعروا بالحاجة لنظرته الثاقبة لما هو، بنظره وربما بنظرهم، معنى لبنان، يعاد تاكيده في هذه الايام الصعبة. وفي الشطر الغربي من بيروت، ما زال هنري فرعون، على شيخوخته الكبيرة وصعوبة الدفاع عن منزل متحف حوله فرعون وطنا صغيراً، يحمل ذكريات وافكار المرحلة التي صاغ عناوينها أمثال بشارة الخوري ورياض الصلح، الى جانب فرعون وشيحا، وكاظم وتقي الدين الصلح، و«الميثاقيين» الآخرين. غادرنا هؤلاء، ويغادرون، والميثاق الذي صاغوه ضحية هجمات متلاحقة من كل حدب وصوب، والمعنى الذي اعتقدوا ان لبنان يحمله في صيرورته، يتناثر ذرات متباعدة على امواج الحرب الأهلية.

منذ ثلاثين سنة عندما اندلعت «أحداث» ١٩٥٨، كان ميثاق ١٩٤٣ قد تعرض ايضاً للانتقاد العنيف، ولكن مصدر النقد آنذاك كان مختلفاً. كان شمعون في سنواته الأخيرة في السلطة، مستأثراً بها، يفرض على المسلمين، في الوزارة كما في «الانتخابات المدارة من فوق»، من يصادقه لا من يمثلهم. فتعرضت الوحدة الوطنية للخطر وهب كثيرون يدافعون عن الوحدة وعن الميثاق.

كان هنري فرعون في طليعة هؤلاء. وكان هاجسه الاول تحديد معنى لبنان وما يبرز بوضوح في كتاباته خلال تلك الايام الصعبة هو تحديد واحد ثابت للبنان: بلد الاقليات التي اتفقت معاً للقول ان مصلحتها الذاتية هي في تعاونها مع الاقليات الاخرى.

بكلام آخر، المصلحة هي الأساس، والمصلحة الطائفية بالذات، وما قيام لبنان بنظره الا نوعاً من تعظيم المصلحة الذاتية لكل طائفة من خلال تعاون مجموع الطوائف. لبنان اذن، في هذه النظرة، نتاج عقد وشراكة بين طوائف لها ارادة وكيان، اجتمعت لتنشىء لبنان. فلا وجود للبنان بالتالي خارج هذا العقد ولكي يبقى العقد قائماً، على كل من المتعاقدين احترام اراء الآخر. والاحترام المتبادل يمر امام نص الدستور والقانون (من هنا معارضة فرعون آنذاك لتعديل قانون الانتخابات، مع ان التعديل هذا كان قد تم وفقا... للاصول الدستورية او للتجديد، ولو قبل به النواب). والاحترام المتبادل هذا يمر فوق الصداقات الخارجية (من هنا معارضة فرعون لقبول المساعدة الاميركية المتضمنة في مشروع ايزنهاور آنذاك، لا لسبب مبدئي، بل لأن بعض الطوائف كانت تعارضها). ويخلص فرعون الى ان الديمقراطية البرلمانية رافد من روافد النظام، اما قاعدة النظام الاولي، فهي تعاقد الطوائف فيما بينها.

وشرط هذا التعاقد، عدم قيام هيمنة طائفية قاسية. «يفقد لبنان اول اسباب استمراره، ان لم يكن ملجأ امينا وضمانة اكيدة ضد انواع التفرقة كلها». ويضيف فرعون: ليس من لبناني صالح، ولا من لبناني مشكوك في امره، انما المسألة هي في احترام العقد (ولا يقول فرعون بالمساواة) لئلا تقوم طائفة ما، تعتبر نفسها ضحية تفرقة واضطهاد بالاستقواء بالخارج، وحينذاك ينتهي لبنان.

هذا هو معنى لبنان للفئة المعتدلة ضمن النخبة الحاكمة، من بشارة الخوري الى ميشال شيحا، ومن هنري فرعون الى بعض رموز الشهابية. لبنان بالأساس ملجأ أقليات. ولقد حاولت الشهابية، في وجهها الآخر، العصري التكنوقراطي، تعديل هذا المعنى، بحيث يصبح الملجأ وطناً وارتكزت لتحقيق ذلك على تيارين شعبيين متقابلين: الكتائب من جهة وجنبلاط من جهة أخرى وكلاهما كانا يدفعان في اتجاه تعديل المعنى، نحو بناء مؤسسات رسمية منعتقة نسبياً من هاجس الملجأ الأمين والتعاون التوافقي خارج اطار الدولة. مع الشهابية شاءت الدولة ان تكون اكثر من نتاج لتوافق الطوائف، فهي ارادت ان تصبح طرفاً على حساب الطوائف، تنظم شؤونها على أمل تجاوزها. ولكن هذه التجربة التي دامت عقداً ما لبثت ان تلاشت بحيث رأينا كلاً من بيار الجميل وكمال جنبلاط يصوتان العام ١٩٧٠ ضد مرشح الشهابية للرئاسة. وكلا الرجلين كانا قد بدءا يعتقدان ان مشروعهما الذاتي، وهما يمثلان، انتفع بما فيه الكفاية من رعاية الدولة، وبان الاوان قد حان لمتابعة المشروع السياسي خارج اطار الدولة، بالعودة الى الطوائف، ولو لم تكن العودة هذه في سبيل تشجيع توافقها.

بعد مئة الف قتيل ونيف يصعب الكلام عن لبنان كملجأ. وازاء التناحر الطائفي الحاد والكنتنة المتقدمة يصعب الكلام عن لبنان كوطن. فما معنى لبنان اليوم؟ هل تدهور هذا المعنى الى حد القول اننا مرغمون على العيش معاً، لا اننا راغبون في ذلك، وهل اصبح معنى لبنان بالتالي هو قدر العيش المشترك لا ارادته؟ التوحيديون اصبح هذا القدر خط دفاعهم الاخير، والتقسيميون يعتقدون، على العكس، باننا في الاساس غير راغبين في العيش المشترك، وغير قادرين عليه، وغير مرغمين. فلينطلق كل منا في طريقه. ازاء كلام كهذا، ينبغي التذكير ببعض الحقائق البديهية.

الحقيقة الاولى هي اننا مرغمون فعلاً على العيش معاً، لا لسبب الا لان الدول العظمى المسيطرة على النظام الدولي بحدوده الحاضرة غير مستعدة بعد لقبول تعديلات حقيقية على تلك الحدود، لا باتجاه الضم والتوحيد، ولا باتجاه التقسيم او التقاسم. الدول العظمى اليوم لا تريد فتح ملف الحدود الاستعمارية، لأنها تعلم ان سياسة كهذه ستجرها الى مشاغل جديدة مضنية من هنا فمسلكها الدائم هو حصر النزاعات الدامية داخل الحدود المعروفة، اي تحويل المناطق الخلافية الى نوع من الكرنتينات المتعددة في طول العالم الثالث وعرضه، على ان تعزل هذه المناطق، عن محيطها الاقليمي والعالمي. لذلك فهاجس الدول العظمى الدائم في لبنان ليس حل الأزمة المستعصية، بل على العكس حصرها لمنع انتقال العدوى وتموينها باسباب الاستمرار ان لزم الامر ذلك.

الحقيقة الثانية، هي اننا بنينا في فترة ما قبل الحرب نظاماً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، هو على علاته، من افضل ما عرفه العرب من تجارب. لقد عرفنا كيف نتجاوز الانقلابات العسكرية المتتالية، والسياسات الاقتصادية العقيمة، والاندماج الاجتماعي العشري والدموي. لقد عرفنا، خلال نصف قرن من الزمن ان نحول بلدنا الى واحة للابداع الثقافي والفني، والى ملجأ امين للرساميل العربية، والى منبر ايديولوجي وسياسي متعدد الاصوات. لقد عرفنا كيف ان نكون عرباً، دون ان تقذفنا امواج الديماغوجية الى هامش التاريخ، وعرفنا كيف ننتج علماء ومثقفين واصحاب خبرات مهنية من الطراز الاول. لقد عرفنا كيف نعيش معاً وننتج ونبدع لخير الجميع. فالحقيقة الثانية التي يجب ألا نتعامى عنها، هي ان الشجرة لا ينبغي لها ان تخفي الغابة عن النظر، وان الحرب الدائرة حالياً لا يجب ان تدفعنا للانخراط في منطق اعدائنا الذين كانوا قد حكموا على بلدنا بالاعدام دون جريمة، وحكموا عليه بالموت الأكيد وهو في عز صحته.

وان كان علينا ان نعترف اولاً باننا مرغمون على العيش معاً، ونقر ثانياً بأن الحرب على قسوتها لا تسمح لنا بأن يعتورنا القرف من تجربة تاريخية فذة دامت نصف قرن، اذاك تبرز حقيقة ثالثة اساسية، وهي ان تجربتنا هذه كانت دائماً معرضة للخطر قبل سقوطها الراهن. ولكننا دخلنا منذ العام ١٩٧٥ لا في أزمة عابرة، ولا في هامش عابر من تاريخنا، سنعود منه بعد حين الى حيث كنا. فالسلم ليس متناً والحرب ليست هامشا. السلم نظام كان قائماً والحرب المستمرة كما يقول احمد بيضون عن حق، نظام قائم بذاته: «انما الحرب نظام. ولهذا معنى بارز هو ان السلام لا يسعه ابداً ان يكون مجرد وقف للحرب وانما السلام نظام جديد يحل عبر عمليات متمادية في محل نظام الحرب. ولهذا معنى بارز آخر، وهو ان مقاومة الحرب لا يسعها ان تكتفي بما قبل الحرب مرجعاً، مرغوباً به كان ام مطعوناً فيه، بل عليها ان تنظر في الحرب نفسها على انها نظام».

من هذا الإقرار بالذات تنبثق الحقيقة الرابعة، وهي ان الظروف الاقليمية الصعبة، والمؤامرات الخارجية الكثيرة والخطيرة، كلها لا تلغي مسؤولية اللبنانيين في الخروج من الازمة. فالطرف الخارجي الساعي، عن حسن نية او عن مصلحة، للاسهام في حل الازمة، بحاجة الى محاور لبناني، يتكلم باسم اللبنانيين فعلاً. لهذا الدور يتنطح كثيرون من المتخمين بالحسابات الطائفية والمبتلين بأصناف العمالة للخارج. لكن الوطن ليس بحاجة لهؤلاء بقدر ما هو بحاجة لتيار شعبي، له وجود في الداخل وفي الخارج، يتحدث فعلاً باسم الوطن كله، يدفع بما تبقى من الأكثرية الصامتة لتتكلم، يعيد بناء مؤسسات المجتمع المدني، ثقافية كانت او مهنية او دينية بوجه الطامعين بالتمثيل الأوحد، يعيد بناء الجسور بين المناطق والطوائف، ويعترف اساساً بأن للبنان معنى يفوق مجموع مطامح فئاته. وان كان لاجراء الانتخابات الرئاسية من مغزى فعلي، فليس هذا المغزى في شخص الرئيس، ولا في برنامجه، ولا في سياساته. انه فقط في اعادة ايجاد سلطة سياسية شكلية موحدة، تكون غطاء مؤسسياً لذلك التيار الوطني، حتى لو لم تكن جزءاً منه.

اما اسس ذلك التيار، ان قام، فيمكن ايجازها بثلاثة: الوحدة، والاستقلال والاصلاح. يتناحر اللبنانيون حالياً حول هذه الأسس بالذات، ولكنهم يختارون منها اساساً واحداً على حساب الآخر. فهذا يطالب بالوحدة باي ثمن، متجاهلاً حاجة النظام للاصلاح، او مستقوياً بالخارج لفرض الوحدة قسراً على حساب الاستقلال. وهذا يقدس الاستقلال متجاهلاً الدعوات للاصلاح، وممارساً باسم الاستقلال الوطني، الكثير من السياسات التقسيمية. وذاك اعماه هدف «الاصلاح» لدرجة انه بدا مستعداً في سبيله للقبول بالهيمنة الخارجية الكاملة، وبتهديد وحدة البلاد من دون رجعة. لقد انقسم اللبنانيون الى «استقلاليين»، و«وحدويين»، و«اصلاحيين» بينما لبنان بحاجة الى لبنانيين هم في الآن نفسه استقلاليون ووحدويون واصلاحيون.

وان كان من مؤامرة على لبنان، فهي بالذات في جعلنا ننتشي باحدى هذه الصفات من دون غيرها، بينما المطلوب منا أن نجمعها معاً في خطنا السياسي وفي استراتيجيتنا العملية. وان نحن استطعنا فعلاً جمع هذه الصفات الثلاث في تيار سياسي واحد، ينسق بينها، يحاول دمجها وتطبيقها لاستطعنا آنذاك ان نفضح الممارسة السياسية الجارية حالياً في لبنان. ففي لبنان اليوم «الوحدويون» تقسيميون بالممارسة، و«الاستقلاليون» تابعون لألف جهة خارجية و«الاصلاحيون» اكلة جبنة من النوع الرخيص. فهذه الاهداف لا قيمة فعلية لها إلا ان حاولنا التوصل اليها معاً. وان نحن تجاهلنا الوحدة، او تناسينا الاستقلال او لم نول الاصلاح حقه، دخلنا في لعبة المرايا المكسرة حالياً، والتي اصبح ارباب الحرب يتقنون ممارستها. وان لم نفعل، لإنتهى لبنان.

---

*استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الاولى.